عاصفة فى الشرق الأقصى

حول حوادث الصين الأخيرة

بقلم باحث دبلوماسى كبير

بينما تواجه أوربا أزماتها الخاصة ، فى اسبانيا وفى حوض البحر الأبيض بنوع خاص ، وتنظر إلى تطوراتها بحيرة يمازجها الجزع ، إذا بحدث خطير يقع فجأة فى الشرق الأقصى ويثير فى الصين فتنة جديدة كادت تسفر عن أخطر العواقب لو لم تخمد فى مهدها . وقد غدت هذه الفورات الفجائية ظاهرة الحوادث فى الصين ، وأضحى من الصعب أن نقف على بواعثها وغاياتها دون الرجوع إلى مثيلاتها من الحوادث والمفاجآت التى توالت فى الصين فى عشرة الأعوام الأخيرة ، واستعراض الاوضاع السياسية الفريدة التى تعيش فى ظلها تلك الأمبراطورية الشاسعة

وملخص الحادث المسرحى الجديد الذى كاد يثير ضرام الحرب الأهلية فى الصين كرة أخرى ، هو أن الماريشال تشانج هسويه لياج الذى يرابط بقواته فى سيانفو عاصمة إقليم شنصى ، قد دبر كميناً للقبض على الماريشال تشانج كايشك رئيس حكومة نانكين الوطنية ، والقائد العام للجيوش الصينية بينما كان يستشفى قريباً من سيانفو ، واعتقله مع بعض حاشيته ؛ ثم أذاع أنه يرمى بذلك إلى حل الحكومة الوطنية الحاضرة التى تمادت فى خضوعها لليابان ، وتأليف حكومة جديدة تعلن الحرب على اليابان ، وتعمل على استرداد الأقاليم التى انتزعتها اليابان من الصين وفى مقدمتها إقليم منشوريا ؛ وقد أخطر الماريشال الثائر أسيره بهذه المطالب ، وأخطر بها حكومة نانكين ، فرفض الرئيس المعتقل ورفضت الحكومة أن تبحث فى شأنها قبل الافراج عن الرئيس ، وإعادة الأمور إلى نصابها ؛ وقد حاولت حكومة نانكين أن تصل بطريق المفاوضة والتفاهم إلى تسوية مؤقتة يفرج معها عن الماريشال المعتقل ، فأبى الزعيم الثائر ؛ واضطرت الحكومة أن تجرد عليه بعض قواتها ؛ وقد زحفت القوات الحكومية فعلاً صوب سيانفو ، وبدأت المعارك الأولى بين الفريقين ونحن نكتب هذه السطور

فمن هو هذا الزعيم الثائر تشانج هسويه لياج ؟ وما هى بواعث حركته ؟ إن الماريشال تشانج هسويه لياج هو ولد الماريشال تشانج تسولين زعيم منشوريا السابق الذى قتل غيلة فى حادث قطار دست له القنابل سنة ١٩٣٠ ؛ وكان تشانج تسولين مدى أعوام طويلة حاكماً بأمره فى منشوريا قبل أن تنتزعها اليابان ؛ وكان يعمل بالاتفاق مع السياسة اليابانية ، فلما قتل خلفه ولده فى حكم الاقليم ، ولكنه اختلف مع السياسة اليابانية ، وكانت حكومة نانكين الوطنية قد قامت يومئذ باسم الصين المتحدة كلها ، فأعلن تشانج هسويه لياج انضمامه إليها ؛ ورأت اليابان الفرصة سانحة لتنفيذ مشروعها الاستعمارى فى الصين ، فاحتجت بوقوع بعض حوادث اعتداء على الرعايا اليابانيين ، وغزت منشوريا فى سنة ١٩٣١ ، واضطر الجنرال تشانج هسويه لياج إلى الانسحاب بقواته دون مقاومة تذكر ؛ وعسكر مدى حين فى إقليم جيهول فى جنوب منشوريا ؛ ولما أتمت اليابان غزو منشوريا واحتلالها ، دفعت قواتها إلى جيهول ، فارتد أمامها الماريشال المنهزم بقواته ؛ واحتلت اليابان أيضاً هذا الاقليم فى سنة ١٩٣٣ ؛ وعسكر تشانج

ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا

ولم نقل للرجل المنتفخ الأوداج شيئاً فلم نعرف أله — أم ليس له — سر يشترى كتمانه . .

* * *

وقلت لصاحبى وأنا أودعه « على فكرة .. من قبيل الاحتياط للمستقبل . . من يدرى ؟ . »

قال : « نعم . . »

قلت : « ما هو الجواب الصحيح . . أمام اللجنة ؟ »

قال : « آه ! . . انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب »

قلت : « أهو ذاك ؟ . أما ما فى الجيب فلست أحتاج فى أمر إنفاقه إلى التكلف . . وأما ما فى الغيب فهل تعرفه يأتى يا صاحبى ؟ »

فأشار لى بيده ومضى عنى وهو يضحك

ابراهيم عبد القادر المازنى

هسويه لياجح من ذلك الحين بد في بعض أنحاء إقليم شنعى . وفى سـنة ١٩٣٥ ، انتدبته حـ مة نانكين ، أو بعبارة أخرى انتدبه الماريشال تشانج كايشك لمحاربة القوات الشيوعية التى تقدمت جنوباً واحتلت ولاية ستشوان المجاورة لشنعى ؛ ولـكنه بدلاً من أن يقوم بهذه المهمة فضل التفاهم مع الشيوعيين ، واتخذ من ذلك الحين موقفه المريب من حكومة نانكين

ويجب أن نذكر كلة عن الشيوعية فى الصين ؛ ففى الصين الآن حزب شيوعى كبير يسيطر على قوات عسكرية كبيرة بقيادة زعيم الشيوعية الصينية ماوتسى دون ؛ وقد كانت الشيوعية من قبل عضد الحركة الوطنية ، ومنذ سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ، وهى فترة الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، تعمل الحركة الوطنية بمعاونة الشيوعية ، ويندمج الحزب الشيوعى فى الحزب الوطنى الصينى (الـكومن تانج) وتستمد الحركة الوطنية كثيرا من القوة والتنظيم من روسيا البلشفية ودعاتها فى الصين . ولـكن الماريشال تشانج كايشك بعد أن تم له الظفر على قوات الشمال فى سنة ١٩٢٧ ، واستطاع أن يقيم حكومة نانكين الوطنية رأى أن يضع حدا للتعاون مع الشيوعية ، وقضى على عناصرها من (الـكومن تانج) ومن الحـكومة والجيش ، وبدأت الخصومة من ذلك الحين بين حكومة نانكين وبين الشيوعية ؛ ومنذ عدة أعوام تعمل قوات الحـكومة لمطاردة قوات الشيوعية ومحاصرتها فى الأقاليم الوسطى التى تسيطر عليها ولـكنها لم تستطع حتى الآن أن تقضى عليها

وفى تلك الفترة استطاعت اليابان أن تنتزع منشوريا وجيهول وبعض الأقاليم الأخرى من الصين ، وأن تمهد تمهيدا قويا لسياستها الاستعمارية فى الصين ؛ وهنا حدث تطور واضح فى سير الحركة الوطنية ، فقد رأى كثير من الزعماء والمستنيرين أن استمرار الحرب الأهلية على هذا النحو يقوى نفوذ اليابان ويفتح أمامها أبواب الصين ، وأنه من الحـكمة والضرورة أن تتضافر القوى المشتتة لمقاومة الاعتداء الأجنبى ؛ ولوحظ أيضا أن المـاريشال تشانج كايشك رئيس الحـكومة الوطنية يتبع إزاء الغزو اليابانى سياسة الضعف والتسليم ، وأنه لم ينفك عن التصريح بأنه يريد التفاهم والاتفاق مع اليابان ، ولـكن على أى الأسس ؟

إن اليابان تسير مسرعة فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ومازالت تنتهز كل فرصة للتوغل فى قلب الصين واحتلال أراضيها . ورد زعماء (الـكومن تانج) على ذلك بأن الحـكومة الوطنية مرغمة على اتخاذ هذا الموقف ، وأن الصين لا تستطيع فى ظروفها الحاضرة أن تقف أمام الغزو اليابانى ، وأنه يحسن التفاهم مع العدو المغير حتى تقوى الصين نفسها وتستطيع أن تقاوم الاعتداء بصورة فعلية ؛ وقد اضطر تشانج كايشك نفسه أمام هذا التيار الجديد أن يؤكد فى تصريحاته الرسمية أمام مؤتمر اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (الـكومن تانج) فى الصيف الماضى أن الحـكومة المركزية لن تتنازل قط عن التمسك بوحدة الصين وسلامة أراضيها ولن تعقد أية معاهدة تخالف هذا المبدأ ، ولن تنزل عند أى رغبة أو وعيد بارغامها على إقرار الحـالة فى منشوكيو (منشوريا) أو أية حالة أخرى من حالات الاعتداء على الأراضى الصينية .

وقد رأى المـاريشال تشانج هسويه لياجح أن ينتهز فرصة هذا التطور لينزل إلى الميدان ، والظاهر أنه يريد أن يحاول استغلال الشعور القومى الذى أثاره اعتداء اليابان المتكرر على الصين ، وأن يجعل من مطالبته حكومة نانكن بأن تعلن الحرب على اليابان شعاراً قوميا يلتف حوله المعارضون لسياسة الحـكومة الوطنية . بيد أن تشانج هسويه لياجح شخصية ثانوية فى الواقع ، وهو لا يشغل بين زعماء الصين أو قادتها مركزاً خطيراً يمكنه من تزعم مثل هـذه الحركة الخطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان الأساليب التى لجأ إليها فى اعتقال رئيس الحـكومة وقائد الجيش الأعلى ومعاونيه ، ليست مما يشهد له بالفطنة والـكياسة ، وليست مما يعاون على التمهيد الحسن لمشاريعه . وتقدر قوات الزعيم الثائر بنحو مائة وخمسين ألف جندى ، وهى قوة ضئيلة بالنسبة للوحدات العسكرية الصينية ، وبالنسبة لقوات الحـكومة المركزية التى تقدر بنحو مليونين ؛ وإذا كانت الحوادث لم تسفر حتى كتابة هذه السطور عن حل حاسم للمشكل فانه لا ريب أن حكومة نانكين لن تنزل عند وعيده ، ولن تتخلى عن محاربته حتى يلقى سلاحه

هذا من الناحية الداخلية ، بيد أن للمسألة ناحية خارجية

فى منتهى الخطورة . فنحن نعرف أن الصين ميدان للتنافس الخطر بين اليابان وروسيا ، وأن اليابان تسيطر على منشوريا ، كما تسيطر روسيا على منغوليا الخارجية ، وأن عوامل الاحتكاك بينهما لا تنتهى ، وخصومة اليابان وروسيا خصومة طبيعية وتاريخية معاً ؛ وكلتاهما تخشى الأخرى وترقب مساعيها فى الصين بمنتهى الغيرة واليقظة ؛ وقد ذهبت اليابان فى توغلها فى الصين إلى حد يثير مخاوف روسيا ويحملها على مضاعفة جهودها لصون أملاكها ومصالحها فى الشرق الأقصى ؛ ومن جهة أخرى فقد عقدت اليابان أخيراً تحالفاً مع ألمانيا ضد الشيوعية أو بعبارة أخرى ضد روسيا ، ومن المرجح أن هذا التحالف الذى يقوم فى الظاهر على هذا الأساس ، يتضمن تحالفاً سرياً عسكريا بين الدولتين ، وأن غايته الحقيقية هى حصر روسيا بين نارين : نار اليابان من الشرق ، ونار ألمانيا من الغرب إذا ما وقعت حرب عالمية . ذلك أن ألمانيا الهتلرية تعتبر روسيا البلشفية عدوتها المميتة ، وتسعى لتحطيمها وسحقها بكل ما وسعت وتعتقد أن تعاونها مع اليابان على هذه الصورة يكون رداً بليغاً على الميثاق الروسى الفرنسى الذى اعتقدت أنه موجه ضدها ، وأنه خطر دائم على سلامتها ؛ والظاهر أن حوادث الصين الأخيرة لم تكن بعيدة عن آثار الميثاق اليابانى الألمانى ، وأنه يمكن أن نلمس فيها أثرا لأصبع روسيا ، وأن الماريشال تشانج هسويه ليانج كان يعول فى ثورته على معاونة روسيا الخفية إذا ما ساعدته الحوادث على تنفيذ برنامجه ، وأن روسيا ترى فى اضطرام هذه الثورة على حكومة نانكين وضد النفوذ اليابانى ، ما يمكن أن يكون رداً من جانبها على الميثاق اليابانى الألمانى ؛ بيد أن روسيا لم تخرج عن تحفظها إزاء هذه الأزمة ولم يبد منها ما يدل على أنها تتصل بها أو تعلق عليها أهمية خاصة ، هذا فى حين أن اليابان قد أبدت استعدادها وتحفزها للتدخل إذا ما تطورت الحوادث تطورا يمكن أن يهدد نفوذها أو مصالحها

ثم هنالك الدول الغربية وعلى رأسها انكلترا ، وهى تعلق أهمية خاصة على سير الحوادث فى الشرق الأقصى ؛ وهنالك أمريكا ، وهى تخشى ازدياد النفوذ اليابانى فى الصين وفى المحيط الهادىء . ومن الواضح أن بريطانيا العظمى ، والدول الأخرى التى تسيطر على أملاك عظيمة فى الشرق الأقصى مثل فرنسا وهولنده ، يهمها كبح التوغل اليابانى ومقاومته ، لأنه يزداد كل يوم خطراً على أملاكها ومصالحها ؛ والسياسة البريطانية تميل بلا ريب إلى تأييد كل حركة تؤدى إلى تحقيق هذه الغاية ؛ بيد أنها لا تميل فى نفس الوقت إلى نهوض الشيوعية وتقدمها فى الصين ، لأنها تعتبرها خطراً عظيما على أملاكها ونفوذها ؛ وهى الآن فى موقف انتظار وتريث واستعداد للطوارىء ؛ وأما أمريكا فهى تسير فى ذلك على سياسة مستقلة ، وكل ما يهمها هو الاحتفاظ بنفوذها وسيادتها فى المحيط الهادىء ، وهى تعتقد أنها تستطيع تحقيق هذه الغاية بالتفاهم مع اليابان وعقد اتفاق يصون مصالح الفريقين

هذا وقد صح ما توقعناه من أن حكومة نانكين لن تخضع لوعيد الزعيم الثائر ، وإن الثورة لن يرجى لها النجاح المنشود ؛ فقد وردت الأنباء الأخيرة بأن الماريشال تشانج هسويه ليانج قد أذعن للأنذار الذى وجهته إليه الحكومة المركزية ، واستمع لنصح زملائه حكام الولايات المجاورة ، وأفرج عن الماريشال تشانج كايشك ؛ وقد عاد الماريشال إلى نانكين عود الظافر فى مظاهرات حماسية ، واعتذر الزعيم الثائر عن فعلته ؛ ولم تعرف شروط التسوية بعد ؛ ولكن الظاهر أن تشانج هسويه ليانج سيغادر الصين مدى حين ، وأن الحكومة ستمنحه معاشاً حسنا ، وأنه تعهد بعدم التدخل فى الشؤون العامة العسكرية أو السياسية

على أنه يبقى لنا أن نتساءل ، هل انتهت الفتنة وأخمدت نهائياً ، أم أنه يخشى أن تكون بذورها قد تمكنت فى القوات المتمردة ، وإن الشيوعية المحلية لا تزال تغذيها ؟ هذا ما لا يتضح الآن : بيد أنه يمكن القول أن حكومة نانكين ستنشط إلى محاربة الشيوعية والقضاء عليها ، لأنها تخشى منها على نفوذها واستقرارها . ولا ريب أيضاً أن الحكومة الوطنية ستعنى بأمر هذا التطور العميق فى شعور الشعب الصينى واتجاهه إلى وجوب الوقوف فى وجه اليابان ووضع حد لمطامعها ؛ وربما اضطر الماريشال تشانج كايشك غير بعيد إلى أن يتخذ سياسة أشد حزماً إزاء المطامع اليابانية ، إذا وجد فى مثل هذا الشعور ما يكفى لتوحيد الصفوف ، وشد أزر السياسة الوطنية المتطرفة التى يجب اتباعها يومئذ وتدعيمها بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر (***)